دمشق واهلها * رد

من قلم جناب العلم ظاهر افندي خير الله الشويري

وقفت على بذة الرد من الكاتب الادیب صاحب مقالة (اخلاق الدمشقيين) فاذا هي بعد تجريدها مما ليس من المناقشة الادبية تشتمل على ثلاث قضايا . الاولى تتصل بما هنا به بحق الدمشقيين . والثانية سهوٌ عن موقع نهر الكنك . والثالثة غفلة عن تعيين الزمان والمكان المناقش على عدد سكان سوريا فيهما

اما تتصل الى الدمشقيين بانه لم يكن ما مسهم به عن قصد منه فهو اكثر اعتبارًا مما لو اقر صريحًا بان ما سبق به في حقهم كان غير الواقع ولا شك بان ذلك عرض له من قصر مدة اقامته في دمشق وهو عين ما ذكرته في مقالتي الاولى التي خاطبه ردًّا عليه او تنديمًا به

واما قضية نهر الكنك فهي مبنية على عبارته الآتية بحروفها وهي : لم ينشا الفرع الاوربي في اوربا ولكنه هاجر اليها من ربى البولور ومن هندكوش فتجاوزًا بخارا وشواطئ بحر الخزر العجيبة وكابل حتى وصل الى نهر الكنك في الهند فقطعهُ وسار الى تلك القارة . اه : فعلى ما في عبارته من تشويش التعبير يتحصل منها انهم انحدروا من هندكوش ومن البولور الى شمال افغانستان بعيدين جدًّا عن شواطئ بحر الخزر العجيبة ثم ساروا شرقًا بجنوب حتى بلغوا كابل وربما انعطفوا الى غربي نهر هندستان او على ضفتيه . ومعلوم ان هذا النهر يفصل بين افغانستان والهند واما نهر الكنك فانهُ يجري في اواسط الهند من الغرب الى الشرق ماثلاً الى الجنوب حتى يصب في خليج بنكالا فقوله انهم قطعوا نهر الكنك وساروا الى تلك القارة يقتضي ان يكون مسيرهم الى تيبت من مملكة الصين او الى بورما وصيام من الهند الصينية لا الى قارة اوربا الاَّ اذا كان هناك قارة اخرى تسمى اوربا فعلمي وعذر كل احد سواهُ اننا لم نسمع بها من غيره . واما ان كان مرادهُ اوربا المعروفة فلا يصح ان يسار اليها من كابل شرقًا الى ما وراء نهر الكنك ولهذا اعتذرت له عنهُ انهُ خطا سهو ولا زلت اعتذر له بذلك وان كان رفض اعتذاري وجراني عنهُ لومًا وتجهيلاً وهو يعلم يقينًا ان ما استشهد به لاثبات دعواهُ لم يفد شيئًا اذ لم يقل فيهِ ان اولئك المهاجرين قطعوا نهر الكنك سائرين الى اوربا . والي وحدهُ شاهدٌ ما كنت لارضى له بما انتهت اليهِ هذه القضية من الانفساح امام مطالعي المتنطف في الآفاق ولا ان يؤثر عنهُ ولكن العدل اعتبرهُ بهِ عقابًا لكونهِ لم يخلصني الرد كما اخلصتهُ اياهُ

واما المناقشة في عدد سكان سوريا فمنشاها قولهُ : وكانت في زمن الرومانيين تقوم باود اكثر من اربعين مليونًا فهي الآن لا تفي باحتياج المليونين من اهلها : وذلك بعدما اوردهُ في وصف دمشق واهلها وغوطتها حتى ان مقالتهُ من اصلها ليست في سوريا على العموم فيتعين اتجاه عبارته الى دمشق وغوطتها ولكني صرفتها الى سوريا عمومًا بقرينة المحال لا المقال صيانةً لكلام العاقل عن اللغو وتنزيهًا لتهمة التهويل عنهُ واعتذرت لهُ بما كنت ارجو ان يقبل لديهِ ولدى غيرهِ من ذوي الاطلاع فلم يرتض ايضًا بذلك بل اغمض عن قولي لم ينقل ولا يوجد ما يدل ان بريه سوريا الشاسعة الواسعة كانت في زمن الرومانيين مزدحمة السكان وعمد الى الحماماة عن السهو بالاستدلال على عمران غربي سوريا بما لا مناقشة فيهِ واورد عدد الاسرائيليين في زمن داود وفي زمن يهوشافاط والمناقشة انما هي في زمن الرومانيين وتملك يهوشافاط كان قبل تملك الرومانيين اليهودية بمدة ٨٥٠ سنة . فعلى قوانين المناظرة لا يلزمني لهُ جواب ولكن دفعًا للابهام اقول لو فطن الى قول داود لبواب والروساء اذهبوا وعدوا اسرائيل لتاكد ان ذلك عدد رجال اسرائيل الذين يطيقون حمل السيف لا عدد جنود قائمة تحت السلاح واذا كان رجال تسعة اسباط ١١٠٠٠٠٠ وللاوي وبنيامين ٢٤٤٠٠٠ مثل سبطين من التسعة مع ما علم من قلة عدد السبطين عد ٤٨ : وقض ٢٠ : ٤٧ وبهوذا وحدهُ ٤٧٠٠٠٠ يكون الجميع ١٨١٤٠٠٠ وعلى تسليم ان الذين يطيقون حمل السيف نصف الذكور فقط واضافة مثل هذا العدد اليهِ للنصف الآخر ومثليهِ للاناث يكون عدد الاسرائيليين ٧٢٥٦٠٠٠ ولم يبقَ من الامم بين اسرائيل الى زمن داود بقية تُعدّ ولكن ارضاءً لهُ نضيف تكملة

سبعة ملايين ونصف. ثم ان معظم المعمور حينئذٍ من سوريا الى جبل حوران وراء بصرى والى ما وراء تدمر نحو نسمها اي ٢٥٠٠٠ ميل مربع بركدهُ قولهُ وبنى (أي سليمان) تدمر في البرية وقد كانت كذلك في زمن الرومانيين ولذلك خربت بعد زينوبيا ولم يقم مدينة على آثارها ولا يقربها كما يكون في خراب المدن المعمورة الارجاء. والارض التي اقتسمها الاسرائيليون سهاماً ١٤٠٠٠ ميل مربع ونيف وقد انتقلوا وانتشروا الى ذلك الوقت حتى كانت ارض سكناهم يقدر ثلاثة ارباع معمور سوريا بدليل دخول تدمر فيها بل بقدر معمور سوريا الآن جميعها لقولهِ وجمع داود كل اسرائيل من شيحور مصر (نهر النيل) الى مدخل حماة ١ اي ١٣ : ٥ فيخرج للميل المربع اقل من ٢٨٠ لا الف كما ذكرهُ في ردهِ. وعلى افتراض ان سائر معمور سوريا كان مزدحم السكان كارض اسرائيل تساهلاً يكون عدد سكان سوريا عشرة ملايين ولو اضفتُ اليها عشرة ملايين اخرى ارضاء لصاحبي ما لبس من بيت ابي جريًا على بعض الامثال يكون ٢٠ مليوناً وذلك اقل من الاربعين كما لا يخفى. ولعل الذي ادّى بهِ الى هذا الخطا غفلة عن حدود سوريا الآن وعن تغير حدودها عما كانت في زمن داود وبهوشافاط والرومانيين ولذلك لا يمكن تخريج عبارته بهذا الشان على وجه صحيح وهذه النتيجة عينها نتيجة ايرادهِ عدد رجال بهوشافاط واظنهُ اوردها بدون مطالعة ما قبلها من السفر ربما لضيق وقتهِ كما اشار الى ذلك والاّ لرأى ان بهوشافاط كان يملك يهوذا وبنيامين وبعض افرايم واكثر اللاويين ولو اضاع نظرهُ الى خارطة اراضي الاسباط (اي اتساع ارض كل من يهوذا وافرايم ورأى ظهر انّا من كون عدد يهوذا بقدر اربعة اسباط يكون تحت ملك بهوشافاط نصف الاسرائيليين وشاهدهُ قول بهوشافاط لاخاب ملك اسرائيل شعبي كشعبك وخيلي كخيلك ١ ملو ٢٢ : ٤ فلا يخرج ما هنا عن التعديل السابق فضلاً عن غرابتهِ من محل المناقشة كما تقدم

ثم قال ان اليهودية فقط كان عدد سكانها في ايام تيطس (وهو خرب اورشليم في تاريخ ٧٠ للميلاد) اربعة ملايين نسمة ومع ان هذا هو محل البحث فقد اجتزأهُ بما يفوق البرق سرعةً لاضياء وجعل شاهدهُ كهلال الشك ضولاً وخفاء فهو لا يخفى انهُ بعد الرجوع من السبي قيل للاسرائيليين جميعاً يهود ولارضهم وبالاولى لملكهم اليهودية وثانياً اكلفهُ مراجعة يوسيفوس مع تراكم اشغالهِ اجاريهِ على ذلك ولكني استفهم اذا كان عدد سكان مملكة اليهودية اربعة ملايين وهي اذ ذاك نصف سوريا الرومانيين كيف يكون عدد سكان سوريا اكثر من اربعين مليوناً. واخشى ان اقنع نفسي بما لا يقتنع بهِ احد حتى ولا صاحبي نفسهُ ان محصولات حبوب سوريا كانت تزيد عن اهلها بعدما سبق في سوريا من الحروب اليونانية والرومانية والانتيوخية والمكابية والسامرية والاسيرية والصدوقية الفريسية والهيرودسية الحروب المتواترة الدموية. على اني لولا وجوب بيان الحقيقة كنت اود ان اسكت قابلاً الجهالة على نفسي من ان يظهر صاحبي مع وفور علمهِ تخطئاً بهذا المقدار بهذه المسائل الطفيفة

ويحق لي ان اكرّر التصريح بانني لم اجعل مقالتي (دمشق واهلها) لتخطئتهِ وانما لما انت مقالتهُ (اخلاق الدمشقيين) مشتملة على ما طاب وما خبث في حقهم (كما اعترف بذلك باعتذارهِ) وعلى منتقداتهِ علمية وادبية منها ما ذكر ومنها اطلاقهُ المسامرة وهي المحادثة في الليل على المخاطبة والمغامرة بالمصالح واطلاقهُ الاود وهو الاعوجاج على ما يقتات بهِ الناس وامثال هذه وعلمت انكار كثيرين عليهِ ذلك فدفعاً من ان يدني من لا يعرفهُ ما لا يرضاهُ ولا ارضاهُ لهُ وضعت نبذة في جغرافية دمشق اوسع مما في كتب الجغرافية المتداولة واستطردت الى ما ذُكِرَ في مقالتهِ فاعتذرت له عن بعض الهنوات ونحت عن البعض الآخر بما يلطفهُ فلم يطبع سوى بعض الاضطراد فراى صنيعي عدواناً لا احساناً

وهنا اقف القلم منتصراً على ما هو من المباحث العلمية بحثاً واما سائر ما رصع بهِ ردهُ مما هو خارج عن حدود المناقشة الادبية فاتركهُ لهُ اذ لم تجر ولا اريد ان تجريني في عادة في الخوض بما اقل تناجُبهِ انهُ يشين قائلهُ اكثر من المقول فيهِ. على اني لا اعرف ذلك دابًا لهُ ولا اظن ما حملهُ عليهِ سوى الحدّة التي يقتها صاحبها ويشتد خجلهُ من آثارها عند العود الى الحالة الطبيعية من السكون والاعتدال